

الفصل التاسع عشر من الغزوتين إلى الحديبية

المرأة والرجل في الإسلام - غزوة بني لحيان - قتل عبيدة والأقرع - غزوة بني المصطلق - حديث الإفك.

تنظيم الجماعة العربية:

استتبَّ الأمر لمحمد ﷺ والمسلمين بعد غزوة الخندق والقضاء على بني قُرَيْظَةَ استتباباً جعل العرب تخافهم أشدَّ الخوف، وجعل الكثيرين من قريش يفكرون: أليس خيراً لقريش لو أنها هادنت محمداً ﷺ وصافته وهو منها وهي منه، والمهاجرون معه بينهم كبارؤها وساداتها واستراح المسلمون بعد الذي اطمانوا إليه من القضاء على اليهود بجوار المدينة قضاء لا تقوم لهم قائمة بعده. ومكثوا بالمدينة لذلك ستة أشهر يباشرون من تجارة الحياة ما يستمتعون معه بشيء من نعمة الحياة، ويزدادون برسالة محمد إيماناً ولتعاليمه امتثالاً، ويسرون وإياه في طريق تنظيم الجماعة العربية تنظيمياً لم يكن مألوفاً عندها من قبل، ولكنه لم يكن منه بدٌ في جماعة منظمة ذات كيان ووحدة كالجماعة التي كانت تتكون تحت سلطان الإسلام رويداً رويداً. فقد كانت العرب في الجاهلية لا تعرف لها نظاماً ثابتاً إلا ما أقرته عاداتها ولم يكن لها في أمر الأسرة ونظامها، والزواج وحدوده، والطلاق وقيوده، وصلات الزوجين والأبناء، إلا ما تمليه طبيعة ذلك الجو الذي يغلو في الإباحة تارة ليصل من الجمود والتقييد إلى حدود الرقِّ وعسفه تارة أخرى. فليُنظَم الإسلام الجماعة الإسلامية الناشئة التي لما تتكوَّن تقاليدها، وليمهد لها في وقت قصير لتضع نواة حضارة تنتظم من بعد ذلك حضارة الفرس والروم والمصريين، وتطبعها بطابعها الإسلامي الذي يتدرج رويداً رويداً حتى يصل إلى كماله يوم ينزل قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(١).

صلوات الرجل والمرأة:

ومها يكن الرأي في حضارة العرب قبل الإسلام وبدواتها، وهل كانت القرى من أمثال مكة والمدينة ذات حضارة لا تعرفها البادية، أو أنها كانت أيضاً في أوليات مراتب الحضارة فإن صلوات الرجل والمرأة في هذه الجماعة العربية كلها لم تكن تعدو، بشهادة القرآن وبشهادة ما بقي من آثار

(١) سورة المائدة آية ٣.

ذلك العهد. صلات الذكورة والأنوثة، مع تفاوت تقليه مراتب الطوائف والعشائر لا يبعد عن هذا الوضع القريب من مراتب الإنسان الأول. ولذلك كان النسوة يتبرجن في الجاهلية الأولى ويبدن من زينتهن ما لا يقف أمره عند بعولتهن. وكُنَّ يخرجن فرأدى ومُنَى وزرافات لحاجتهن يقضينها في غوطة الصحراء فيلقاهن الشبان والرجال وهن يتهادين في جماعتهن، فلا يأبى هؤلاء ولا أولئك أن يتبادلوا أشهى النظرات ومعسول الحديث مما يستريح إليه الذكر وتطمئن إليه الأنثى. وبلغ من أمر هذه الصلة وما وقرت في النفوس، أن لم تأب هند زوج أبي سفيان أن تقول في أشد مواقف الجد والشدة، وهي تحث قريشاً حين الحرب يوم أحد:

إِنْ تُقْبَلُوا نُعَانِقُ وَنَفْرَشُ النَّمَارِقِ
أَوْ تُدْبِرُوا نُفَارِقُ فِرَاقٌ غَيْرُ وَاغِقِ

أحاديث الهوى ووثبات القتال:

ولم يكن الزنا يومئذ بالجريمة ذات الخطر والشأن في بعض القبائل. وكان الغزل بعض معروف العرب جميعاً. ولقد ذكر الرواة عند هند هذه، على ما كان لأبي سفيان من مكانة وخطر، أحاديث غرام وهوى لم تغير من مكانتها في قومها ولا بين أهلها. ثم إن المرأة كانت إذا ولدت، ولم يعرف لمولودها أب، لم تأب أن تذكر من لامسها من الرجال لينسب مولودها إلى أبهم كان أقرب إليه شياً. ولم يكن إلى ذلك الوقت لتعداد الزواج ولا للرق حد أو قيد. كان للرجل أن يتزوج ما شاء، وأن يتسرى ما شاء، وكان هؤلاء، ولأولئك أن يلدوا ما شاءوا. وكان الأمر في ذلك لا خطر له إلا أن يتضح وتُخشى معرفته، وما قد يجبر وراءه من أهاجى تتبادل لا يدري أحد ما ينبجُم عنها من خصومة وقتال. هنالك يتبدل الأمر غير الأمر، وترى ما كانت المودة قد سترت من قبل من ملاحم الهوى ووثبات الغرام، قد هتكته الخصومة فجعلته سبباً للملاحم القتال ووثبات النزال. وإذا شبت الخصومة فلكل أن يتقول ما شاء وأن يزعم ما يريد. وخيال العربي خصب، بطبيعة عيشه تحت السماء، وتحواله الدائم في طلب الرزق، واضطراره إلى المغالاة وإلى الكذب أحياناً في شؤون التجارة. والعربي مولع بالفراغ الذي يفره بالفضل ويزيد خياله في السلم والحرب خصباً. فإذا وقف زيد في السلم يحدث هنداً حديث هوى لم يزد على شهى اللفظ تساقطه لآئى الثنايا العذاب، رأيت زيدا هذا حين الخصومة والحرب يرفع عقيرته بهند، وقد لقيها أمامه متجردة، يقول في نحرها وصدورها ونهداها وخصرها وعجيزتها وما دون ذلك ما شاءت له أفاتين الخصومة، واهتياج الخيال الذى لا يعرف في المرأة غير الأنثى وغير ما تفرش من التمارق. ومع ما قضى الإسلام على هذه النفسية فقد بقى من آثارها ما نقرؤه في مثل شعر عمر بن أبي ربيعة، وما تأثر به شعر الغزل في العربية إلى عصور كثيرة، وما لا يزال له أثره، ولو إلى حد قليل، في شعر عصرنا الحاضر.

المرأة عند العرب وأوروبا في ذلك العصر:

ربما بدا هذا التصوير للقارئ المُعجَب بالعرب وحضارتهم، وللمعجَب حتى بعرب الجاهلية، مشوباً بشيء من الغلو. وللقارئ العذر من ذلك، إذ يوازن بين هذه الصورة التي وضعنا أمامه، وما هو واقع بالفعل في عصرنا الحاضر وما نرجو أن تصل إليه صلات الرجل والمرأة في الزواج والطلاق وصلات الزوجين والأبناء. لكن موازنة كهذه مخطنة جدية أن تَجَرَّ إلى أفحش الضلال. إنما يجب أن يُوازَن بين الجماعة العربية التي صورنا إحدى نواحيها في القرن السابع المسيحي، والجماعات الإنسانية في ذلك العصر.

المرأة في الشرع الروماني:

وما أحسبنا نقالي إذا قلنا: إن الجماعات العربية كانت، مع ما وصفنا من أمرها، خيراً بكثير من الجماعات المعاصرة لها في آسيا وفي أوروبا. ولسنا نقف عندما كان من ذلك في الصين أو في الهند، فما لدينا من المعلومات عنه قليل لا غناء فيه. لكن أوروبا الشمالية وأوروبا الغربية كانت يومئذ في ظلمات تُبيح له أن تصوّر من نظام الأسرة فيها ما تريد مما يقرب من أوليات مراتب الإنسانية. وكانت الروم، وهي صاحبة الشرع يومئذ وصاحبة الغلب والسيادة والمنافس الوحيد القوي للفرس، تجعل المرأة من الرجل في مكانة دون مكانة المرأة العربية من الرجل حتى في البادية. كانت المرأة في شرائع الروم يومئذ معتبرة متاعاً مملوكاً للرجل يتصرف فيه كيف يشاء. ويملك من أمره ما يريد حتى الحياة والموت. كانت تعامل معاملة الرق سواء، لا فارق بينها وبينه في نظر الشرع الروماني. كانت مملوكة لأبيها، ثم لزوجها، ثم لابنها، وكان ملكهم إياها تماماً كملكهم الرقيق وكملكهم الحيوان والجماد. وكان يُنظر إلى المرأة على أنها مثار الشهوة، وعلى أنها لا سلطان لها على أوثقها الحيوانية، حتى لم يكن بد من اصطناع نطاق العفة ومن التمسك بذلك قروناً متواليه. بعد هذا العصر الذي نصف فيه أحوال جزيرة العرب. ومع أن السيد المسيح عليه السلام كان برّاً بالنساء عطوفاً عليهن. حتى لقد قال حين أظهر بعض رجاله العجب لحسن معاملته مريم المجدلية: «من لم يكن منكم ذا خبيثة فليرمها بحجر». مع هذا ظلّت أوروبا المسيحية، كما كانت أوروبا الوثنية من قبل، تزدرى المرأة شراً ازدراء. ولم تكن تنظر إلى صلاتها بالرجل على أنها صلات الذكورة والأنوثة وكفى، بل على أنها صلة عيودية ورقّ ومهانة مما طوّع لبعض المتكلمين في عصور مختلفة أن يتساءلوا: للمرأة روحٌ وأنها ستحاسب، أم أنها كالحيوان لا روح لها ولا تعرف عند الله حساباً وليس لها في ملكوت الله متسع!

محمد ﷺ والإصلاح الاجتماعي:

وكان محمد ﷺ يقدر، بما أوحى إليه، أن لا صلاح للجماعة إلا بتعاون الرجل والمرأة، باعتبار

أنها أخوان متضامنين تضامن مودة ورحمة، وأن للنساء مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة. لكن الأخذ في ذلك بالطرفة لم يكن أمراً ميسوراً، ومهما يكن من إيمان العرب الذين اتبعوه به، فإن أخذهم باليسير من الأمر وعدم تعريضهم للحرج، أدعى إلى مزيد إيمانهم، وإلى ازدياد أنصاره. وكذلك كان الشأن في كل إصلاح اجتماعى فرضه الله على المسلمين.

بل كذلك كان الشأن في فروض الدين ذاتها، في الصلاة والصوم والزكاة والحج. وكذلك كان الشأن في المحرمات كالخمر والميسر ولحم الخنزير وما إليها. وقد بدأ محمد، في شأن الإصلاح الاجتماعى، وتقرير صلات ما بين الرجل والمرأة، بالمثل يضربه فيما بينه وبين أزواجه بما كان المسلمون جميعاً يرونه. فالحجاب لم يُفرض على نساء النبى إلى ما قبيل غزوة الأحزاب كما لم يُفرض تحديد الزوجات بأربع مع شرط العدل إلى ما بعد غزوة الأحزاب، بل إلى ما بعد غزوة خيبر بأكثر من سنة. فكيف يصل النبى إلى توطيد علاقات الرجل والمرأة على أساس صالح، تمهيداً لهذه المساواة التى انتهى الإسلام إليها مساواة تجعل للنساء مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة؟

الإسلام ينهى عن التبرج:

كانت صلات الرجل والمرأة عند المسلمين، كما كانت عند سائر العرب، على ما وصفنا، مقصورة على صلات الذكورة والأنوثة. وكان التبرج وإبداء الزينة بصورة تدعو إلى تحرش الرجال بالنساء، كلما وجدوا الفرصة لذلك بعض ما يُدكى عواطف الجنس عند الرجل والمرأة على سواء، وما يحول لذلك دون التقريب بينها تقريباً أساسه المعنى الإنسانى السامى، وأساسه الاشتراك الروحى فى العبودية لله وحده. وقد نشأ عن قيام طوائف اليهود والمنافقين فى المدينة، وخصومتهم لمحمد وللمسلمين أن بلغ تحرش هذه الطوائف بالمسلمات حداً أدى إلى حصار بنى قينقاع كما رأيت، وإلى إيصال الأذى للمسلمات، مما كانت تنشأ عنه مشاكل لا ضرورة لها. فلو أن المسلمات لم يُبدن زينتهن أثناء خروجهن، لكان ذلك أدنى أن يُعرفن فلا يُؤذَن، ولو فر ذلك هذه المشاكل، ولكان بدءاً حسناً لهذه المساواة التى يريد الإسلام تحقيقها بين الجنسين، من غير أن يشعر المسلمون، رجالاً ونساءً بانتقال فى الفكرة لم يهدوا له. وفى هذه الظروف نزل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا. يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُزَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا. لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا تُقِفُوا آخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا. سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾^(١)

(١) سورة الأحزاب الآيات من ٥٨ إلى ٦٢.

وينهى عن إبداء الزينة:

بهذا التمهيد سهل على المسلمين أن يقلعوا عن عادات العرب الأولى. كما أن ما قصد إليه شارع الإسلام، من تنظيم الجماعة على أساس الأسرة طاهرة من أدران الدخيلة مما جعل الزنا جريمة كبرى، قد يسّر لكل مسلم أن يقدر ما في تبرج الأنثى تنبدي به للذكر من عيب ومعرة، ما لم تكن صلة ما بين الرجل والمرأة تسمح بهذا التبرج. وذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنْ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ. وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَائِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخْوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ أَوْ نِسَاءَ مَا يَحْكُمُونَ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطِفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ، وَلَا يُضْرَبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١).

وكذلك عمل الإسلام، فتدرجت صلة ما بين الرجل والمرأة إلى غير ما كانت فلم تبق صلة ذكورة وأنوثة إلا حيث تُخشى الفتنة من مثل هذه الصلة؛ فأما في سائر شؤون الحياة وفي علاقات الرجال والنساء جميعاً، فالكل سواسية، والكل عباد الله، والكل متضامنون للخير ولتقوى الله. فإذا فرط من أحدهم أو من إحداهن ما يذكي في النفس معاني الجنس فذلك إنم يجب على من فرط منه أن يتوب إلى الله إنه هو التواب الرحيم.

لكن ذلك كله لم يكن كافياً لينقل النفس العربية في أعوام قلائل من اعتباراتها الأولى ليغيرها في هذا الشأن، كما غيرها في الإيمان بالله وعدم الشرك به؛ نفساً جديدة. وذلك طبيعي؛ فالمادة إذا تكيفت على صورة ما، لم يكن من اليسير تحوّلها إلا رويداً رويداً؛ ومهما تحوّلها فلن تحوّلها إلا قليلاً. ذلك شأن حياة الإنسان المادية. تطبّع العادات المتوارثة، وتطبّع تقاليد البيئة في شئون حياته. فإذا أريد به أن يتغير فقد وجب أن يتدرج في انتقاله وتغيره، ثم إنه لن يستطيع هذا التدرج إلا إذا غير ما بنفسه. وقد يستطيع الإنسان أن يغير جانباً من جوانب نفسه بإزالة ما أمامها من حوائل تعوق نمدها وانتشارها لتمثل الكون كله. وهذا ما فعل الإسلام بالمسلمين في شأن توحيد الله والإيمان به وبرسوله وبالأيوم الآخر. لكن كثيراً من جوانب النفس العربية لم تحطّم أمامه العوائق وخاصة في شئون الحياة المادية، فبقى المسلمون فيه قرييين مما كانوا قبل إسلامهم، وذلك كان شأنهم فيما طبعتهم عليه حياة الصحراء من تلكؤ، وفيها درجوا عليه من حب التحدث إلى النساء.

بيت النبي ﷺ ونساؤه:

ومع هذا الذى أسلفنا من تعديل الدين الجديد نظرهم لصلات ما بين الرجل والمرأة، فقد ظلوا فيما سوى ذلك كما كانوا من قبل أو على مقربة منه. وكثيراً ما كان أحدهم يجب أن يدخل على النبى بيته، وأن يمكث عنده وأن يتحدث إليه وأن يتحدث إلى نسائه، وقد كانت مهام النبوة العظمى أكبر من أن تدع محمداً ﷺ يشغل نفسه بحديث هؤلاء الذين يبحثون إليه، والذين يتحدثون إلى نسائه وما ينقل نساؤه إليه من أحاديثهم، لذلك أراد الله أن يخلى نبيه من هذه المشاغل الصغرى، فأنزل عليه الآيات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاطِرِينَ إِنَاءَهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ، وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾^(١).

وكما نزلت هذه الآية حديثاً للمؤمنين وإرشاداً لهم إلى واجبههم إزاء النبى وأزواجه، نزلت الآيتان الآتيتان كذلك موجهتين إلى أزواج النبى فى هذا الشأن نفسه. قال تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا. وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى. وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^(٢).

التمهيد الاجتماعى للجماعة الإسلامية:

هذا هو التمهيد الاجتماعى الجديد الذى أرادته الإسلام للجماعة الإنسانية. أقام أساسه على تغيير نظرة الجماعة إلى ما بين الرجل والمرأة من صلوات، وأراد أن يحو من النفوس تسلط فكرة الجنس واعتبارها وحدها المتغلبة على كل اعتبار، وأراد بذلك أن يوجه الجماعة وجهتها الإنسانية العليا التى لا تنكر على الإنسان استمتاعه بالحياة استمتاعاً لا يضعف من حرّيته فى أن يريد - ومن باب أولى لا يسلبه هذه الحرية فى أن يريد - التى تجعل من الإنسان صلة ما بين الكائنات جميعاً، فيرتفع به من مراتب زراعة الأرض ومن الصناعة ومن تجارة الحياة أياً كانت، لتسمو به إلى مجاورة القديسين والاتصال بالملائكة المقربين. وقد جعل الإسلام من الصوم والصلاة والزكاة وسائل لهذا السمو؛ بما تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، وبما تطهر النفس والقلب من شوائب الخضوع لغير الله، وبما تقوى من أسباب الأخوة بين المؤمنين، ومن الاتصال بين الإنسان وسائر ما فى الكون.

(٢) سورة الأحزاب آيتا ٣٢ و ٣٣.

(١) سورة الأحزاب آية ٥٣.

غزوة بني الحنات:

هذا التنظيم للحياة الاجتماعية رويدًا رويدًا، تمهيدًا للانتقال العظيم الذي أعد الإسلام له الإنسانية، لم يمنع قريشًا والعرب أن ترتبص بمحمد الدوائر، ولم يمنع محمدًا أن يكون دائم الحذر، سريعًا إلى النشاط لإلقاء الرعب في قلوب خصومه عند الحاجة. من ذلك أنه، بعد ستة أشهر من القضاء على بني قريظة - شعر بشيء من الحركة في ناحية مكة، ففكر في أن ينتقم لحبيب بن عبدى وأصحابه ممن قتل بنو الحنات عند ماء الرجيع منذ سنتين. على أنه لم يجهر بقصد خيفة أن يتخذ العدو الحيلة لنفسه. فأظهر أنه يريد الشام ليصيب من القوم غرة، فأخذ قواته وعم بها شمالًا. فلما اطمأن إلى أن قريشًا وجيرانها لم يبق منهم من يفتن لمقاصده، انتقل راجعًا إلى ناحية مكة وأعد السير مسرعًا حتى بلغ منازل بني الحنات بعران. لكن قومًا رأوه أول انحداره إلى الجنوب فرع منهم بنو الحنات قصده إياهم، فاعتصموا بروع الجبال هم ومتاعهم. وفات النبي أن يصيبهم، فبعث أبا بكر في مائة راكب حتى بلغوا عسفان على مقربة من مكة. ثم كر رسول الله قافلًا إلى المدينة في يوم قاتظ بلغ من قيظه أن كان النبي يقول: «أبيون ثابتون إن شاء الله لربنا حامدون. أعوذ بالله من وعاء السفر وكأبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال».

غزوة بني قرد:

ولم يكده محمد ﷺ يقيم بالمدينة ليالي بعد أوبته إليها حتى أغار عيينة بن حصن على أطرافها، وكان بظاهاها إبل ترعى يجرسها رجل وامرأته فقتل عيينة وأصحابه الرجل وساقوا الإبل واحتملوا المرأة وانصرفوا يحسبون أنهم من اللحاق بمنجاة. لكن سلمة بن عمرو بن الأوكوع الأسلمي قد غدا يريد الغابة متوشحًا قوسه وتبيله؛ فلما مر على ثنية الوداع وأشرف على ناحية من سلع، وأبصر القوم قد اقتادوا الإبل واحتملوا المرأة، فصاح: واصباحاه! وجعل يشدد في أثر القوم حتى إذا اقترب منهم رماهم بالنبل، وهو في أثناء ذلك لا ينفك يصيح. وبلغ محمدًا ﷺ صياح سلمة. فنادى في أهل المدينة: الفرع الفرع؛ فترامى الفرسان إليه من مختلف النواحي، فأمرهم فانطلقوا في أثر القوم، وجهاز هو قواته وسار على رأسها يتبعهم حتى نزل بالجبل من ذى قرد. كان عيينة ومن معه قد أعدوا السير مسرعين يريدون اللحاق بقطبان نجاة من المسلمين. ولكن فرسان المدينة أدرکوا مؤخرتهم واستخلصوا شطر الإبل منهم ولحق بهم محمد ﷺ فأعانتهم؛ ونجت المرأة المؤمنة التي كان العرب قد احتملوا. وأراد جماعة من أصحاب النبي أخذت منهم الحماسة كل مأخذ أن يتأثروا عيينة، فردهم رسول الله، أن علم أن عيينة وأصحابه قد أدرکوا غطفان واحتموا بهم. ورجع المسلمون إلى المدينة، وجاءت امرأة الحارس في آثارهم على ناقة المسلمين. وكانت المرأة قد نذرت إن أنجتها الناقة لتنحرها قربانًا إلى الله، فلما أخبرت النبي بنزرها قال: «بس ما جزيتها أن حملك الله عليها ونجأك بها ثم تنحرنيها. إنه لا نذر في معصية الله ولا فيها لا تملكين».

غزوة بني المصطلق:

وأقام محمد ﷺ بالمدينة بعد ذلك قرابة شهرين. ثم كانت غزوة بني المصطلق بالمريسيع، هذه الغزوة التي يقف عندها كل كاتب وكل مؤرخ لسيرة النبي العربي؛ لا لأنها غزوة ذات قيمة، أو لأن المسلمين أو عدوهم أبلوا فيها بلاء خارقاً للعادة، بل لأن الشقاق كاد يفشو بعدها في صفوف المسلمين، فحسّمه الرسول بأحسن ما يكون عزيمة وحزماً، ولأن من أثرها أن تزوج الرسول من جويرية بنت الحارث، ولأن هذه الغزوة أثمرت حديث الإفك عن عائشة حديثاً كان موقفها منه، وهي لما نزل في السادسة عشرة، موقف إيمان وقوة تحطمت على جنباتها وعنت لجلالها كل الوجوه. فقد بلغ محمداً ﷺ أن بني المصطلق وهم فرع من خزاعة، يجمعون في حيهيم على مقربة من مكة، وأنهم يحرّضون عليه يريدون قتله وعلى رأسهم قائدهم الحارث بن أبي ضرار. ووقف محمد من أحد البدو على سرّ جمعهم فأسرع في الخروج ليأخذهم على غيرة، كعادته في أخذ أعدائه. وجعل لواء المهاجرين لأبي بكر، ولواء الأنصار لسعد بن عبادة. ونزل المسلمون على ماء قريب من بني المصطلق يقال له المريسيع، ثم أحاطوا ببني المصطلق ففرّ من جاءوا لنصرتهم. وقد قتل من بني المصطلق عشرة ولم يُقتل من المسلمين إلا رجل يقال له هشام بن صباية، أصابه رجل من الأنصار وهو يحسبه خطأ من العدو. ولم يجد بنو المصطلق، بعد قليل من التراشق بالنبال، مفرّاً من التسليم تحت ضغط المسلمين القويّ السريع، فأخذوا أسرى هم ونساؤهم وإبلهم وماشيئتهم. فتنة عبد الله بن أبي:

وكان لعمر بن الخطاب في الجيش أجير يقود فرسه، فازدحم بعد انتهاء الموقعة مع أحد رجال الخزرج على الماء فاقتتلا فتصايحا، يقول الخزرجي: يا معشر الأنصار، ويقول أجير عمر: يا معشر المهاجرين. وسمع عبد الله بن أبي النداء، وكان قد خرج مع المنافقين في هذه الغزوة ابتغاء الغنيمة، فثار ما في نفسه على المهاجرين وعلى محمد من حفيظة، وقال لجلسائه: «لقد كاترنا المهاجرون في ديارنا والله ما أعدنا وإياهم إلا كما قال الأول: «سَمَنَ كلبك يأكلك». أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعرض منها الأذل». ثم قال لمن حضر من قومه: «هذا ما فعلتم بأنفسكم: أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم. أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير داركم». ومشى بحديثه هذا ماش إلى رسول الله بعد فراغه من عدوه، وكان عنده عمر بن الخطاب، فهاج عمر لما سمع وقال: مرُّ به بلائاً فليقتله. هنا ظهر النبي كدأبه مظهر القائد المحنك والحكيم البعيد النظر. إذ التفت إلى عمر وقال: فكيف يا عمر إذا تحدث الناس وقالوا إن محمداً يقتل أصحابه؟

لكنه قدر في الوقت نفسه أنه إن لم يتخذ خطة حازمة فقد يستفحل الأمر. لذلك أمر أن يؤذّن في

الناس بالرحيل في ساعة لم يكن يرتحل المسلمون فيها، وترامى إلى ابن أبي ما بلغ النبي عنه، فأسرع إلى حضرته ينفي ما نسب إليه، ويحلف بالله ما قاله ولا تكلم به. ولم يغير ذلك من قرار محمد الرحيل شيئاً، بل انطلق بالناس طيلة يومهم حتى أمسوا، وطيلة ليلتهم حتى أصبحوا، وصنر يومهم الثاني حتى أذتهم الشمس. فلما نزل الناس لم يلبثوا حين مسّت جنوبهم الأرض أن وقعوا من فرط تعبهم نياماً، وأنسى التعب الناس حديث ابن أبي وعادوا بعد ذلك إلى المدينة ومعهم ما حملوا من غنائم بنى المصطلق وأسراهم وسبيهم، ومعهم جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار قائد الحى المهزوم وزعيمه.

حقد ابن أبي على النبي ﷺ:

بلغ المسلمون المدينة، وأقام ابن أبي بها، لا تهدأ له نفس حسداً لمحمد ﷺ وللمسلمين، وإن تظاهر بالإسلام بل بالإيمان؛ وإن أصر على إنكار ما نُقل عنه لرسول الله ﷺ عند المريسيع. أثناء ذلك نزلت سورة المنافقين وفيها قوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَوَلَّهُ خِزَانَتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَقْفَهُونَ. يَقُولُونَ لِنَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

مأساة نفسية بالغة - عفو النبي ﷺ عن ابن أبي:

هنالك حسب قوم أن في هذه الآيات قضاء على ابن أبي، وأن محمداً ﷺ لاريب أمر بقتله. فذهب عبد الله بن عبد الله بن أبي، وكان مسلماً حسن الإسلام، فقال: «يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه، فو الله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبرّ بوالده مني. وإنى لأخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس، فأقتله أقتل رجلاً مؤمناً بكافر فأدخل النار». كذلك قال عبد الله بن عبد الله بن أبي لمحمد. وما أحسب عبارة أبلغ من عبارته على إيجازها في قوة التعبير عن حالة نفسية تضطرب فيها أقوى العوامل في النفس أثراً: تضطرب فيها عوامل البرّ بالأب وصدق الإيمان والنخوة العربية والحرص على سكينته المسلمين حتى لا تتواتر الثارات بينهم! فهذا ابن يرى أباه سيقتل، فلا يطلب إلى النبي ألا يقتله، لأنه يؤمن بأن النبي إنما يصدع بأمر ربه، ويوقن بكفر أبيه. وهو، من خيفة ما يقتضيه البرّ بأبيه وما تقتضيه الكرامة والنخوة أن يثار له من قتله، يريد أن يحمل على نفسه وأن يقتل هو أباه، وأن يحمل هو بنفسه إلى النبي رأسه، وإن قطع ذلك قلبه وفري كبده! وهو يجد في إيمانه بعض العزاء عن هذا الشطط الذي

(١) سورة المنافقون آيتا ٧ و٨.

يكلف نفسه، مخافة أن يدخل النار إن هو قتل المؤمن الذى يأمره النبى بقتل أبيه. أتى جلاذ بين الإيمان والعاطفة والخلق أشد من هذا الجلاذ! وأية مأساة نفسية أفتك بصاحبها من هذه المأساة! أفندرى بم أجاب النبى عبد الله بعد أن سمع قوله: «إننا لا نقتله بل تترقق به ونُحسن صحبته ما بقى معنا».

يا لروعة العفو وجلاله! محمد يترقق بهذا الذى يؤلب أهل المدينة عليه وعلى أصحابه، فيكون رفقته ويكون عفوه أبعد أثرًا من عقوبته لو أنه أنزلها به. فقد كان عبد الله بن أبى بعد ذلك إذا أحدث الحديث يعاتبه قومه ويعنفونه ويشعرونه أن حياته بعض هيات محمد له. وتذاكر النبى مع عمر يوماً شؤون المسلمين وجاء ذكر ابن أبى وما يعاتبه قومه وما يعنفونه؛ فقال محمد: كيف ترى يا عمر! أما والله لو قتلته يوم قلت لى اقتله لأرعدت له أنف لو أمرتُها اليوم بقتله لقتلته. قال عمر: قد والله عَلِمْتُ لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمرى.

عائشة مع النبى ﷺ فى بنى المصطلق:

حدث ذلك كله بعد أن عاد المسلمون إلى المدينة ومعهم ما معهم من السبى والغنائم. على أن أمراً حدث لم يترك بادئ الرأي أثرًا، كان له بعد ذلك حديث طويل. ذلك أن النبى كان إذا غزا أقرع بين نسائه، فأيهن خرج سهمها خرج بها معه. وخرج سهم عائشة عشية غزوة بنى المصطلق فخرج بها. وكانت عائشة نحيفة خفيفة، فكانوا إذا جاءوا بالهودج إلى بابها خرجت إليه فأخذ الرجال به فشده إلى ظهر البعير وهم لا يكادرون يشعرون بها لحفنة زنتها. ولما فرغ النبى من سفره وسار ومن معه مسيرتهم الطويلة المضنية التى ذكرنا، أتجه بعد ذلك إلى المدينة، حتى إذا كان قريباً منها نزل منزلاً بات به بعض الليل ثم أذن فى الناس بالرحيل وكانت عائشة قد خرجت من خيمة النبى لبعض حاجتها والهودج موضوع أمام الخيمة فى انتظار دخولها فيه.

تتخلف عن الركب فلا يحسونها:

وكان لعائشة عقد انسل من عنقها وهى فى بعض حاجتها. فلما قامت عائذة إلى الرحيل التمسست العقد فلم تجده فرجعت أدراجها تبحث عنه. ولعلها بحثت عنه طويلاً حتى وجدته. ولعلها أغفت أثناء ذلك لقرط ما نالها من التعب بعد مسيرتهم المجهدة. ورجعت إلى المعسكر لتستقل هودجها، فإذا القوم قد شده إلى ظهر البعير وهم يحسبونها فيه، وارتحلوا وهم يحسبون أنهم حملوا معهم أشد أمهات المؤمنين حظوة عند النبى. ولم تجدهى فى المعسكر داعياً ولا نجيباً. فلم يساورها الخوف وأيقنت أن القوم إذا افتقدوها فلم يجدوها رجعوا إليها، فخير لها أن تبقى مكانها من أن تضرب فى الصحراء على غير هدى تفضل السبيل. ولم يساورها الخوف فانتفتت فى جلبابها واضطجعت مكانها منتظرة دعوة الباحث عنها.

عودها إلى المدينة مع صفوان:

وإنها لفي ضجعتها إذ مرَّ بها صفوان بن المُعَطَّل السُّلَمِيُّ، وكان قد تخلَّف عن العسكر لبعض حاجاته وكان يراها قبل أن يُضرب الحجاب على نساء النبي، فلما بُصر بها على هذه الحال تراجع دَهْشًا وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون! ظعينة رسول الله صلى الله عليه وسلم! ما خلَّفك رحمك الله؟ فلم تجبه فقرب هو لها البعير واستأخر عنه وقال: اركبي، فركبت. وانطلق بالبعير سريعًا يطلب الناس فلم يدركهم، أن كانوا يُعجلون سيرهم يريدون المدينة ليستريحوا بها من عناء السير الذي أمر به رسول الله إطفاءً للفتنة التي كادت تقوم بسبب حديث ابن أبي. ودخل صفوان المدينة في وضع النهار بأعين الناس وعائشة على ظهر بعيره. حتى إذا كانت عند منزلها بين منازل نسوة الرسول دلقت إليه. ولا يجوز بخاطر أحد أن يُحدِّث في أمرها قولاً أو يثير حول تأخرها عن الركب شبهة، ولا يدور بخاطر الرسول ظنُّة سوء في ابنة أبي بكر أو في صفوان المؤمن الحسن الإيمان.

وما كان لحديث أن يدور، وها هي ذى تدخل المدينة بأعين الناس في أعقاب العسكر الذين جاءوا لم يرض بين مجيئهم ومجيئها وقت يحمل على ظنَّة أو يبعث إلى نفس ريبة؛ وها هي تدخل بأعين الناس صافية الجبين مشرقة الوجه، ليس في شيء من مظهرها ما يريب. فلتجر إذا شؤون المدينة كما هي وليقتسم المسلمون الأسلاب والغنائم والسبايا مما أسروا من بني المصطلق، ولينعموا بهذه الحياة الرخيَّة التي تزداد على الأيام رخاء كلما زادهم إيمانهم على عدوهم عزًّا، وكلما أظفرتهم به عزيمتهم الصادقة واستهانتهم بالموت في سبيل الله وفي سبيل دينه وفي سبيل حرية العقيدة، حرية كان العرب من قبلُ يأبونها عليهم.

جويرية بنت الحارث - النبي ﷺ يتزوجها:

وكانت جويرية بنت الحارث من سبايا بني المصطلق، وكانت امرأة حلوة مُلآحة وقد وقعت في سهم أحد الأنصار، فأرادت أن تفتدى نفسها منه، فأغلى الفداء علمًا منه بأنها ابنة زعيم بني المصطلق، وأن أباهما على أداء ما طلب قدير. وخشيت جويرية أثر شططه، فذهبت إلى النبي وكان في دار عائشة فقالت: «أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، فوقعت في سهم فلان فكاتبته على نفسي، فجتتكَ أستعينك على كتابتي». قال: فهل لك في خير من ذلك؟ قالت: وما هو؟ قال: أقتضى كتابتك وأتزوجك. فلما بلغ الناس الخبر أطلقوا من أيديهم من أسرى بني المصطلق إكرامًا لصهر رسول الله إياهم، حتى لكانت عائشة تقول عن جويرية: ما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها.

هذه رواية، وتجري رواية أخرى بأن الحارث بن أبي ضرار جاء إلى النبي ﷺ بفداء ابنته، وأنه

أسلم بعد أن آمن برسالة النبي، وأنه أخذ ابنته جويرية فأسلمت كما أسلم أبوها فخطبها محمد ﷺ إليه فزوجه إياها، وأصدقها أربعمئة درهم.

وفي رواية ثالثة: أن أباه لم يكن راغباً في هذا الزواج، بل لم يكن راضياً عنه، وأن أحد أقارب جويرية هو الذي زوجها من النبي ﷺ على غير إرادة أبيها.

حديث الإفك:

تزوج محمد ﷺ من جويرية، وبنى لها منزلاً إلى جانب منازل نسائه في جوار المسجد، وأصبحت بذلك من أمهات المسلمين. وبينما هو في شغله بها كان قوم قد بدعوا يتهامسون. ما بال عائشة قد تأخرت عن المعسكر وجاءت مع صفوان على بعيره، وصفوان شاب وسيم الطلعة مكتمل فتوة الشباب؟! وكانت لزينب بنت جحش أخت تدعى حمنة، وكانت تعلم ما لعائشة عند محمد من حُظوة تقلّمها على أختها فجعلت حمنة هذه تُدبّع ما يهمس به الناس من أمر عائشة، وكانت تجد من حسان بن ثابت عوناً، ومن عليّ بن أبي طالب سميّاً. فأما عبد الله بن أبي فوجد في هذا الحديث مرعى خصيماً لشفاء ما في نفسه من غلّ وجعل يُدبّع جهد طاقته. ولكن جماعة الأوس وقفوا موقف الدفاع عن عائشة، وقد كانت مضرب المثل في الطهر وسمو النفس. وكاد الحديث يؤدي إلى فتنة في المدينة.

حيرة النبي ﷺ:

وبلغت هذه الأخبار محمداً ﷺ فاضطرب لها. ماذا؟! عائشة هذه تخونه! هذا مستحيل. إنها الأئنة والإباء، وإن لها من حبه إياها وشدّة عطفه عليها ما يجعل مجرد ظنّ كهذا إثماً دونه كل إثم. نعم! ولكن أف للنساء! من ذا يستطيع أن يسبّر غورهنّ أو يصل إلى قرارة ما في نفوسهن! وعائشة بعد طفلة يافعة! وأى شيء هذا العقد الذي فقدته فذهبت تلمسه جوف الليل؟ وما بالها لم تُجرب له وهم ما يزالون في المعسكر من أمره ذكراً؟! وتقلب النبي على أشواك الحيرة، ما يدرى أيصّدق أم يكذب.

مرض عائشة - أذى الرسول ﷺ من حديث الناس:

أما عائشة فلم يجرؤ أحد على أن يبلغها من كل هذا الذي يقول الناس شيئاً، وإن أنكرت من زوجها جفاء لم تعرفه منه ولم يتفق في شيء مع لطفه بها وحبه إياها. ثم إنها مرضت من بعد ذلك مرضاً شديداً، فكان إذا دخل عليها وأمها ترضها لم يزد على قوله: «كيف تبيكم؟». ووجدت عائشة في نفسها لما رأت من جفاء النبي إياها، وجعلت تتحدّث نفسها: ألا تكون جويرية قد حلّت من قلبه محلّها! وبلغ من ضيق دُرْعها بجفاء محمد ﷺ إياها أن قالت له يوماً: لو أُذنت لي فانتقلت إلى أمي فمرّضتني! وانتقلت إلى أمها وفي نفسها من اندهشة لهذا التفریط في أمرها ما آذاها وأنها. وظلّت

في مرضها بضعة وعشرين يوماً حتى نَقِهَتْ، وهي لا تعرف من كل ما يدور حول اسمها من حديث شيئاً. أمّا محمد فقد بلغ من تأذيه بترامى هذه الأخبار إليه أن قام يوماً في الناس يخطبهم فقال: أيها الناس! ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عني غير الحق! والله ما علمت منهم إلا خيراً. ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيراً، وما يدخل بيتاً من بيوتى إلا معي». فقام أُسَيْدُ بن حُضَيْرٍ فقال: يا رسول الله، إن يكونوا من إخواننا الأوس نَكْفِيكَهُمْ، وإن يكونوا من إخواننا الخزرج فَمُرْنَا بأمرك. فوالله إنهم لأهل أن تُضْرَبَ أعناقهم. وردَّ عليه سعد بن عُبَادَةَ بأنه إنما تقدم بهذه المقالة لأنه يعرف أنهم من الخزرج، ولو كانوا من الأوس ما قالها. وتَشَاوَرُ النَّاسُ وكادت تقوم الفتنة لولا حكمة الرسول ﷺ وحسن مداخلته.

الخبر يبلغ عائشة - معاتبته أمها وحيرتها:

وانتهى الخبر آخر الأمر إلى عائشة، حَدَّثَتْهَا به امرأة من المهاجرين، فلما عرفته كاد يُغْشَى عليها من هولهِ. وانطلقت تبكي لا يجبس دمعها حابس حتى شعرت كأن كبدتها تتصدع. وذهبت إلى أمها وقد أثقل الهَمُّ كاهلها حتى كاد ينوء بها، وقالت لها والعَبْرَةُ تَحْنَقُهَا: يغفر الله لك يا أمّاء! تَحَدَّثُ الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً! ورأت أمها الهَمُّ الذي بها، فحاولت تخفيف أثره في نفسها فقالت: أَى بُنْيَةٍ، خَفَى عليك الشَّانُ فوالله لقلِّبًا كانت امرأة حسناء عند رجل يجيها لها ضرائر إلا كَثُرْنَ وكَثُرَ الناس عليها. ولكن عائشة لم تتعزَّ بهذا القول، وزادها ألمًا أن ذكرت جفاء النبي إياها بعد الذي كان من لطفه بها، وأن شعرت بأنه قد وقع في نفسه من هذا الحديث أثر وقامت بنفسه منه ريبة. لكن ماذا عساها تستطيع أن تفعل؟! أنفأتمحه في القول وتذكر له الخبر وتقسم له أنها بريئة؟! هي إذا اتهم نفسها ثم تدفع التهمة بالآيمان والتوسُّلات. أفتُعْرِضُ عنه كما أعرض عنها وتجفوه كما جفاها؟ لكنه رسول الله ﷺ وهو قد اصطفاها على نساءه، وليس من ذنبه أن تحدث الناس عنها بسبب تأخرها عن العسكر وعودها مع صفوان. ربَّاه؟ ألهِمها في هذا الموقف الدقيق مخرَجًا يَتَضَحَّ لمحمد معه الحق في أمرها ليعود إلى مثل ما كان من حبِّها والعطف عليها واللفظ بها.

محمد ﷺ يشاور أسامة وعليًا:

ولم يكن محمد ﷺ خيراً منها مكاناً؛ فقد آذاه ما يتحدث به الناس، حتى اضطَّرَّ آخر الأمر إلى أن يتشاور مع خُصَّامه ماذا يصنع. فذهب إلى بيت أبي بكر ودعا إليه عليًا وأسامَةَ بن زيد فاستشارهما، فأما أسامة فنفى كل ما نُسِبَ إلى عائشة على أنه الكذب والباطل، وأن الناس لا يعرفون كما لا يعرف النبي عنها إلا خيراً. وأمّا عليٌّ فقال: يا رسول الله، إن النساء لكثير. ثم أشار باستجواب جارية عائشة لعلها تصدقه. ودُعيت الجارية وقام لها على فصرها ضرباً موجعاً وهو يقول: اصدقني رسول الله، والجارية تقول: والله ما أعلم إلا خيراً، وتنفى عن عائشة قالة السوء. أخيراً لم يبق أمام محمد ﷺ إلا أن يواجهه زوجه وأن يطلب إليها أن تعترف.

مواجهة محمد ﷺ عائشة:

ودخل عليها وعندها أبواها وامرأة من الأنصار، وهي تبيكى والمرأة تبيكى معها. وقد هوى الأسى بنفسها إلى أعماق قرارات الحزن من هول ما ترى من ريبة محمد بها. من ريبة هذا الرجل الذى تحب وتقدس؛ والذى به تؤمن وفيه تفتى. فلما رأته كفكفت دمعها وسمعت إليه وهو يقول: «يا عائشة، إنه قد كان مابلغك من قول الناس، فاتقى الله إن كنت قد قارفت سوءاً مما يقولون، فتوبى إلى الله يقبل التوبة عن عباده».

ثورة عائشة:

فما إن أتم حديثه حتى ثار في عروقها دمها، وجف من عينها دمعها، وتلفتت إلى ناحية أمها وإلى ناحية أبيها تنظر بما يجيبان. لكنها سكتا فلم ينيسا بكلمة. فازدادت ثورة نفسها وصاحت بهما: ألا تُجيبان؟! وقالوا: والله ما ندرى به نجيب. وعادا إلى وجومها. وهناك لم تملك نفسها دون الشئخ بالكاء؛ وساعتها دموعها لتهدى من الثورة المضطربة بين ضلوعها تكاد تحرقها. ثم وجهت الكلام إلى النبي وهي تبيكى فقالت: والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبداً! إني لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس والله يعلم أنى بريئة لأقولن ما لم يكن، ولئن أنا أنكرت لا تصدقونى. ثم سكتت هنيهة وعادت تقول: إنما أقول كما قال أبو يوسف: «صَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ».

نزول الوحي ببراءة عائشة:

فترة سكوت تلت هذه الثورة لم يعرف حاضروها أطالت أم قصرت على أن محمداً ﷺ لم يبرح مجلسه حتى تغشاه من الوحي ما كان يتغشاه، فسجى بثوبه ووضعت وسادة من آدم تحت رأسه. قالت عائشة: أما أنا فوالله ما فزعت ولا باليت حين رأيت من ذلك ما رأيت، فقد عرفت أنى بريئة وأن الله غير ظالمى. وأما أبواى فما سرى عن رسول الله ﷺ حتى ظننت لتخرجن نفساهما فرقا من أن يأتى من الله تحقيق ما قال الناس. فلما سرى عن محمد جلس يتصب عرقاً، فجعل يمسحه عن جبينه ويقول: أبشرى يا عائشة! قد أنزل الله براءتك. قالت عائشة: الحمد لله! وخرج محمد ﷺ إلى المسجد فألقى على المسلمين هذه الآيات التى نزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(١).

(١) سورة النور آية ١١ وما بعدها.

إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ. يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. وَبَيِّنَ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ. إِنَّ الَّذِينَ يَجِبُونَ أَنْ تَنْشِعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

رمى المحصنات وتنفيذ حكمه في رماة عائشة:

وفي هذه المناسبة كذلك نزلت عقوبة رمى المحصنات: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(١). وتنفيذاً لحكم القرآن أمر بمسطح بن أنثاء وحسان بن ثابت وحنمة بنت جحش وكانوا ممن أفصح بالفاحشة، فضرب كل منهم ثمانين جلدة وعادت عائشة إلى مثل مكانها الأول من بيت محمد ومن قلبه.

يقول السير وليم موير تعليقاً على هذا الحادث ما ترجمته: «إن حياة عائشة قبل هذا الحادث وبعده تدعونا إلى القطع ببرامتها وعدم التردد في إدحاض أية شبهة أثيرت حولها».

جمال العفو:

وقد استطاع حسان بن ثابت من بعد أن يعود إلى رضا محمد ﷺ وعطفه عليه، كما طلب محمد إلى أبي بكر الأ مجرم مسطحاً عطفه الذي عوّده إياه. ومن ثم انقضى هذا الحادث ولم يبق له في المدينة كلها أثر. وأسرع النقة إلى عائشة وعادت إلى دارها من مساكن الرسول، وإلى مكانتها من قلبه، وإلى مركزها الرفيع من نفوس أصحابه المسلمين جميعاً. وبذلك فرغ النبي إلى رسالته وإلى سياسة المسلمين استعداداً لعهد الحُدَيْبِيَّةِ يفتح الله به على المسلمين فتحةً مبيّنة.